أثر التخيّل والإيحاء الصوتي في تفسير النصّ القرآني

جامعة الموصل / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

٢٠١٨ م ١٤٤٠ه

ملخص البحث

للدراسة نظر في طبيعة الصوت القرآني تُعوّل فيه على الإيحاء الذي تُثيره السياقات الصوتية المتناغمة مع المضمون الدلالي الذي تمثله ولا يُعد هذا التناغم عبثاً تحمله الكلمات بعشوائية التلفظ حيناً والتناسب حيناً آخر إنما هو الإطِّراد في ذاك التناسب تنقلاً ما بين المقامات والخطابات القرآنية لتقارب الدراسة في طرحها القول بإعجازية الصوت القرآني بما يُسمى ببلاغة الصوت القرآني كما هي بلاغة الدال القرآني .

The Effect of Imagination and Voice Implication in The Interpretation of Qur'anic Text Search Summary

Abstract

The study looks at the nature of the Qur'anic voice in which it relies on the nature of the implication of sound contexts that are consistent with the semantic content that they represent, and this harmony is not message bearing random pronunciation and proportionality, but the constant in that proportionality moves between Qur'anic standing places and discourses, to be close with the study proposals in its submission of the miraculous of the Qur'anic voice of the so-called eloquence of the Qur'anic voice, as is the eloquence of the Qur'anic word**.**

المقدمة

كان قد تعلق الإعجاز القرآني بالنظم لعصور خلت لدى الدارسين كما هو مدار أهل التفسير ولنا في هذا مذهباً نذهبه في الصوت القرآني تُعضدنا فيه أقاويل العلماء الأسبقين وكذا المعاصرين إذ القرآن أحرف لها كيفيات من النطق تُمثل صفاتها فضلاً عن القراءات التي أجمع العلماء على قرآنيتها إذ نجد من خلال هذه الدراسة المُستقصية للصوت بلاغة متناغمة من حيث الإيحاء مع بلاغة الكلمة إنه التكامل المتناهي وصور الإعجاز المتكررة من خلال التوافق كما الاختيار المقصود للكلمات إذ الصوت فيها لا يكون في أغيارها إن الوقوف على هذا النوع من الإعجاز لا يكون للقاريء المجافي للحقيقة اللغوية التي تنص على علاقة الصوت بالمعنى المؤدى به إذ النبر المتكلم عنه مثلاً تتحول معه الدلالة من شكل لآخر بناءاً على المستوى الصوتي المحاكي لتلكم الدلالة إن للصوت إيحاءاً لا يخفى على كل مُطّلع مُتذوق كما هو في الحياة اليومية الذي نتلمسه من ألسنة المتكلمين انفعالاً وضجراً وزهواً وسروراً إن الطبقة الصوتية تتعالى في أحدهما بينما تخفت وتهدأ في الأخرى وهذا النمط المعاش يكون على تمامه حدّ الأداء الملفت للنظر في القرآن فتواتره بأكثر من موضع يدع المتتبع في حال من الدهشة جراء ذلك التناغم العجيب فليست الكلمات القرآنية مُتراتبة على جهة النظم والترابط اللغوي والنحوي فحسب بل مكللة بالصوت محاذياً موافقاً لدلالاتها متنوعاً بتنوعها إنها الصور المثارة في المخيّلة وهي تختفي عنّا لأننا لم نُدركها لتلاوتنا المستعجلة والتي نُخالف فيها الخطاب القرآني ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ إذ تجاوزنا بتلك المخالفة مفاد الصوت التي تنص عليه هذه الآية تجاوزاً للصورة الحية الكاملة للمعنى الذي نطلبه وتأتي هذه الدراسة استكشافاً للقيمة الدلالية للأصوات القرآنية التي ورد بتلاوتها الأثر انتهاءاً إلى النبي ﷺ فاختيارها نظراً لطبيعتها الذاتية كان اختياراً مقصوداً كما حضورها في سياقات دون أخرى كان هو الآخر مقصوداً إن الصّور القرآنية تضيء في الأذهان عتمة المجهول من خلال الإقبال عليها بجامع ما يُثيره الصوت المحرك لجمود المعنى تجانساً مع الصورة البلاغية الكلية للجملة إن الصوت يحمل صورة الواقع إلى الذهن فيثير فيه مخابيء الخيال بما يوحيه من نَغَمِه ليرسم مع ظاهر التعبير الحقيقة الغائبة لهذا الواقع المحكي عنه ففيه من الحياة ما يتجاوز حدود اللفظة الضيقة إلى أفنية المعنى وهي تنهض بواقعه إلى واقع القاريء المتدبر ربطاً بين الصوت الممثل للفظه والمعنى الدال عليه فبه نتجاوز جدل القدماء حول القول بالترادف وجوداً وعدماً في القرآن إذ الصوت من خلال دراستنا ينحاز إلى مفردة دون أخرى نظيرة لها وما ذاك إلّا لتميزها الصوتي فضلاً عن القيمة الدلالية التي تنفرد بها تآخياً مع الصوت المعبر عنها بطابع الإنسجام ومن لا نصيب له من التذوق الأدبي والفني ومن لا يقرأ بدقة أحكام التلاوة ثم ينتقل إلى وجه مناسبتها لدلالتها لن يتذوق ولن يتعرف على جدية ايجابية التخيّل المثار من ذلك الصوت من خلال الإيحاء والإيماء في القرآن الكريم بل هناك الكثير من النماذج التطبيقية التي تُبين أثر دلالة الصوت والمعتمدة في ترجيحات المفسرين في تفسير النصّ القرآني كشفاً لجانبه الجمالي والفني والذي تكلمت عنه

الباحثة ساجدة عبدالكريم [١] فأهتمت دراستنا بما هو متعلق بجانبي التخيّل والإيحاء كقراءة خاصة في المخيلة الانسانية وحقيقتها الادراكية تأثراً بطبيعة الايحاءات الصوتية القرانية وبُعداً عن المعالجات البحثية السابقة لها [٢] محاولة تغطية هذا الجانب المتلازم في المتلقي كأثر من آثار الصوت القرآني في البنية الذهنية الواعية كما بينت حدود الابداع التأويلي ومحاذيره في استجلاء الدلالة القرآنية وفقاً لتلكم المتلازمة الذهنية في القاريء المفسِّر .

.

([١]) ينظر : ساجدة عبد الكريم ، أثر الصوت في توجيه الدلالة –دراسة أسلوبية صوتية – مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، المجلد (١٧) العدد (٣) ٢٠١٠ م : ٣١١ وما بعدها .

([٢]) ينظر : جنان محمد مهدي ، الإيقاع الصوتي الايحائي في سياق النص القرآني ، مجلة كلية التربية للبنات – جامعة بغداد - المجلد (٢١) العدد الرابع لسنة ٢٠١٠ : ٨ .

المبحث الأول

الإيحاء في الاستعمال اللغوي والتعبير القرآني

المطلب الأول

الإيحاء الصوتي أصل من أصول الاستعمال اللغوي والقرآني

لا شك في أن الصوت يحمل قيمة دلالية داخل التركيب تختلف عن القيمة الدلالية التي يحملها خارج التركيب [٣] وهذا النَغَم ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة للإيحاء [٤] فصورة الحرف بلا نطق حي يُعمّق ما تحمله الكلمة من معنى تشبه صوراً ميتة إذ : " أن الصورة لا تثير التخيّل كما الصوت فالصوت يثير الخيال ويعمق التفكير بعكس الصورة " [٥] كما إن التلاؤم يكون في الكلمة بائتلاف الحروف والأصوات وحلاوة الجرس ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقرات وحسن الايقاع [٦] لهذا سيكون للتنغيم أهميته : " فالجملة اثناء الاستمرار في نطقها لها تنغيم معين وعند انتهائها يصبح لها تنغيم آخر وهكذا والجملة التقريرية لها تنغيم والجملة الاستفهامية لها تنغيم ثانٍ والاحتمالية لها تنغيم ثالث والتوكيدية لها تنغيم رابع وهكذا " [٧] كما الإيحاء يتسع معها فالمفردة القرآنية عموماً تتميز بثلاث مميزات رئيسة جمال وقعها في السمع واتساقها الكامل مع المعنى واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى [٨]

---

(١) أشواق محمد إسماعيل ، لسانيات النص القرآني بين التنظير والتطبيق ، ط١ ، عالم الكتب الحديث (اربد : ٢٠١٣م): ١٥٨ .

(٢) أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم ، ط١ ،عالم الكتب الحديث (الاردن : ٢٠١٣م) : ٥٣ .

(٥) أمين محمود ، القعساء تحطم الخريطة الذهنية : ٢ نقلاً عن الشبكة العنكبوتية .
(٤) أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم : ٥٣ .

(٥) أحمد مختار عمر ، اخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ، ط٢ ، عالم الكتب (اربد : ١٩٩٣م) : ٤١ .
(٦) أشواق محمد إسماعيل ، لسانيات النص القرآني بين التنظير والتطبيق : ١٣٠ .

ذلك أنه : " من المعروف ان للأصوات اللغوية وطريقة توزيعها في نسيج العبارة تأثيراً في إيقاعها شدة ولياً فتكون ذات إيقاع قوي إذا كانت نسبة الأصوات ذات الجرس القوي غالبة عليها وتكون ذات إيقاع رخي إذا كانت نسبة الأصوات اللينة والضعيفة غالبة عليها والنظم القرآني يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المخاطبين " [٩] وقد أشير أيضاً إلى العلاقة بين المعنى في النفس وبين تجليه في الأصوات والحركات فليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي وإن هذا الإنفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة وبما يهيأ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها [١٠] فكان اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلاً يانعاً في القرآن الكريم لا للدلالة الصوتية فحسب بل لجملة من الدلالات الايحائية واللغوية والهامشية وتلك ميزة القرآن في تخير الألفاظ [١١] ويبدو لي أن تخيّر الألفاظ كما نراه يقود بالضرورة الى خصوصية نطقية دونما الألفاظ الأخرى الأقل تميزاً في الأداء بالرغم من الترادف الحاصل في تشكّل المعنى من خلال تلك الالفاظ ذات الصبغة الدلالية الواحدة من حيث تمثيل المعنى المراد من الكلام هو مما بينه أسامة عبد العزيز بقوله : " فلعل مما أبهر بلغاء العرب من القرآن الكريم هذا التناسق الصوتي الذي ائتلف فيه المعنى بنظام صوتي عجيب لم يألفوه من قبل لا في شعرهم ولا في نثرهم " [١٢] لهذا كان اهتمامنا هنا بالايحاء تأثراً بالصوت " لأن الصورة الصوتية للحرف تشكل المادة الأولى للقيم اللفظية " [١٣] أما الأصوات التركيبية فيحمل منها مخزوناً موسيقياً يجعل له حضوراً جمالياً في الكلام ويتمثل هذا المخزون في الملامح التمييزية التي يتشكّل منها الصوت فلكل ملمح طابعه الموسيقي الخاص لحدوثه بفعل حركات معينة في الجهاز النطقي تعمل على تغيير ذبذبة الهواء الذي يتكون منه

---

(٩) محمد حسين الرنتاوي ، ذوق الحلاوة ببيان علاقة المعنى بإعجاز التلاوة ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض : ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٨) ينظر : المصدر السابق : ٢٤٣ – ٢٤٨.

(٩) ينظر : أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم : ٥٥ .

(١٠) المصدر نفسه : ٢٤ .

(١١) المصدر نفسه : ٥٥ .

الصوت اللغوي ويشبه هذا ما يحدث في الآلات الموسيقية فنوعية صوت الآلة يعتمد على كيفية ذبذبة الهواء وبتآزر هذه الملامح في الصوت اللغوي تتبلور موسيقاه التي يتميز بها [١٤] بل ان جرس اللفظ بمقدوره أن يوحي بمعناه ولهذا توجد ألفاظ لا يعرف معناها إلا بالنطق بها كأسماء الأصوات وأشباهها وهو مذهب عند أهل اللغة [١٥] يكاد يطَّرد في القرآن كما ويرى البعض من الباحثين ان المناسبة الصوتية ذات البعد الايحائي إنها طبيعة في اللغة العربية فيقول : " فاللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة والمقصورة لغة ايقاعية أكثر من غيرها كالعربية وذلك لأن المقاطع الصوتية ذات وزن مختلف يتراوح بين الثقل والخفة فإذا تناسب الثقل والخفة اندرج الايقاع اللذيذ فيها بيسر لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن . . . ومن هذا المنطلق يضاف إلى إعجازات القرآن إعجازه في تناسب المقاطع الصوتية التي تتألف منها كلماته بإيقاعها الزمني والصوتي لأن حلاوة السمع فيه لا توجد إلّا مع وجود التناسب في هذه المقاطع " [١٦] ويبدو أن الدال الصوتي من حيث الكم وتكراره منضبط في توزيع نغمه الى حد الاثارة [١٧] فكما للصوت سمت في السمع له مقدار يُمثل بؤرة أخرى في التأثير فليس الصوت بمجرد عن عوامل ومكملات أخرى حتى ينتهي الأمر إلى طبيعة المتلقي وإمكانيته الذهنية وفي القرآن كما يبدو لي أشارات كثيرة للمتمعن من خلال الدعوة الى التفكّر والتدبّر وأوصاف أخرى يتميز بها المتلقون كوصف أولو الألباب والابصار .

---

(١٢) ينظر : مهدي عناد قبها ، التحليل الصوتي ، دار أسامة ، ط١ (عمان ٢٠١٣م) : ٥٥ .

(١٣) ينظر : طه صالح امين ، التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء ، ط١ ، دار المعرفة (بيروت : ٢٠٠٧ م) : ٣٣١ .

(١٦) أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم : ١٤٥ .

(١٧) ينظر : محمد عبد المطلب ، جدلية الافراد والتركيب في النقد العربي القديم ، ط١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر (القاهرة : ١٩٩٥ م) : ١٣٦ - ١٣٧ .

المطلب الثاني

علاقة التعبير القرآني بالاستعمال الصوتي

المراهنة في هذه الدراسة على طبيعة الاستعمال القرآني المعجز في صوره التعبيرية إلى جانب الاختيار لهذه اللغة التي وصفها القرآن بالبيان فتمثل الاستعمال القرآني باختيار كل حرف وما تميز به من صفة إذ الصفة تفيد بأنها تُعطي كل حرف ميزته عن غيره وكيفية ضبطه ومعرفة كيفية تحسّينه في السمع كما هناك الصفة العارضة في الاستعمال القرآني وهي التي تعرض للحرف في بعض الأحوال وتنفك عنه في بعضها الآخر لسبب من الأسباب أو لعلة صوتية مؤثرة في نطق الصوت وبسبب اختلاف الحركات كالحركات الثلاث والوقف والوصل والروم والاشمام والتفخيم والترقيق والاشباع والاختلاس والإمالة وأنواع الإدغام والإظهار والإقلاب والإخفاء وأنواع المدود وتحقيق الهمز وتسهيلها وتليينها وقد عد السمرقندي ما يناهز خمساً وستين صفة عارضة ثم قال (وأمثال ذلك كثيرة لا تُعد ولا تحصى) [١٨] فهناك فروق ومناسبات لغوية - نحوية - صوتية - لذلك لابد أخذ ذلك بالاعتبار الفروق والمناسبات اللغوية والمعاني النحوية والنغم المختلف للحرف والكلمة عند استنباط المناسبة ما بين الصوت والدلالة الايحائية التي يؤديها ومن الفروق الملاحظة والتي لها مناسب صوتي " الفرق بين النداء والدعاء أن النداء هو رفع الصوت بماله معنى والعربي يقول لصاحبه ناد معي ليكون ذلك أندى لصوتنا أي أبعد له، والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه يقال دعوته من بعيد ودعوت الله في نفسي ولا يقال ناديته في نفسي، وأصل الدعاء طلب الفعل " [١٩] فالفرق بين الدعاء والنداء أن الدعاء لا بد فيه من افتقار الداعي إلى المدعو . . . واذا دعا الناس بعضهم بعضاً فلحاجة في نفس الداعي إلى المدعو . . . فالأصل في النداء أن يكون برفع الصوت فهو أخص من الدعاء والنداء في المعاجم هو الدعاء لأن المطلوب بكل منهما الإقبال [٢٠]فنجد النداء احوج الى مد الصوت والمبالغة فيه من الدعاء وهذا ما يكثر في السياقات القرآنية المفتتحة بقوله تعالى : (يا ايها) فيتكلم عنها مهدي المخزومي وعن بعض أدوات النداء وطرق الإيحاء الذي تمثلها فيقول : " والهمزة بحركتها المقطوعة لا تعين على مد الصوت ولهذا استعملت لنداء القريب أو ما ينزل منزلة القريب (يا) وهي لفظ مؤلف من ياء وصوت لين هو الألف وينادى بها القريب

([١٨]) رشيد عبد الرحمن العبيدي ، معجم الصوتيات ، ط١ ، مركز البحوث والدراسات الاسلامية (بغداد : ٢٠٠٧م) : ١١٢- ١١٣ .

([١٩]) أبي هلال العسكري ، الفروق اللغوية للعسكري ، حققه محمد ابراهيم سليم ، دار العلم والثقافة (القاهرة : د . ت) : ١ /٥٣٤ .

([٢٠]) ينظر : عبد العظيم ابراهيم دراسات جديدة في اعجاز القرآن ، ط ١ ، مكتبة وهبة (القاهرة : ١٩٩٦م): ٢٥٤ ــ ٢٥٩ .

والبعيد لأنها تنتهي بصوت مد يعين على مد الصوت وإيصاله إلى المنادى البعيد " [٢١] وفي مناسبة أخرى يقول : " فإن النداء يقوم على أساس من مد الصوت لينتبه المنادى فيستجيب للنداء ومد الصوت يقوم على مد الألف في (يا) أداة الاستعمال الواسعة " [٢٢] ومن المناسبات أيضاً بين الصوت الباعث على إيحاء مجانس للدلالة اللغوية " إن الجمع يدل على الكثرة والمبالغة كما يدل التشديد على المبالغة " [٢٣] فالصوت في القرآن يطول ويقصر يرتفع وينخفض ينفجر ويخفت يرق ويفخم كله لمناسبات واعتبارات بلاغية للصوت بجانب الدلالة يقتضيها المقام هناك يقول محمد أحمد قاسم : " إن كل ظن يتصل بعده (إن) الخفيفة فهو شك كقوله (إن ظنا ان يقيما حدود الله) ٢٣٠ البقرة وكل ظن يتصل به (إن) المشددة فالمراد به اليقين كقوله تعالى (اني ملاق حسابيه) والمعنى فيه (إن) المشددة للتأكيد فدخلت على اليقين و(إن) الخفيفة بخلافها فدخلت على الشك وقد عد الزركشي هذا سراً من أسرار القرآن ودعا إلى التمسك به " [٢٤] ومما تتضح فيه الصورة أيضاً الفرق بين خبر المبتدأ وخبر (إن) : " إن الخبر في الأول يلقى الى خالي الذهن من الحكم والتردد فيه وفي الثاني يلقى إلى الشاك أو المنكر في أول درجته " [٢٥] وفي الشاك طلب التأكيد تستدعيه البلاغة دلالة وصوتاً معبراً كما هو الحال مع النون المشدد وغنتها من (أنّ) فإذا كان لحضور الصوت دلالة فلغيابه دلالة أخرى لا تقل أهمية وهو ما يسمى بالحذف إذ له وظائف منها : " الاشارة إلى حجم الذيوع والانتشار (التفخيم والاعظام) . . . وقد يكون من وظائف الحذف التلطف . . . وقد يكون من وظائف الحذف مراعاة حال النفس في محنتها وشدتها . . . أما عندما تكون النفس في حالة استئناس فيبسط لها الكلام . . . أحياناً يعبر الحذف عن مدى المسرة والابتهاج . . . ومن وظائف الحذف تصوير سرعة الاستجابة . . . أحياناً يحذف الشيء من الكلام دفعاً للسآمة . . . ومن ظائف الحذف تلهف المدعو ومثاله حذف (يا) الاضافة في لفظ (رب) " [٢٦] " وإنما هذه الحروف المحذوفة . . . تم الحذف فيها لدلالات سياقية كالدلالة على سرعة حدوث الفعل أو سهولته على فاعله أو شدة قبول المنفعل به في الوجود " [٢٧] وكذلك لمعاني الحروف دلالات تستوقفنا في مناسباتها الصوتية من خلال ما توحيه بلفظها قصراً وطولاً والمثال الذي نسوقه بين (ثمّ) ذو الامتداد الصوتي الماثل بالغنة وحرف الفاء ذو الصوت المقتضب " فإننا نرى أحياناً أن حرف الفاء يؤتىُ به لتصويره استمرارية الحالة التي وصفت بها حتى تأتي

([٢١]) مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق ، دار الرائد العربي (بيروت : ١٩٨٦م) : ٢١٧.
([٢٢]) المصدر نفسه : ٢٢٠.
([٢٣]) المصدر نفسه : ٢٦٨ .

([٢٤]) محمد أحمد قاسم ، القواعد الجامعة صرفاً ونحواً واسالیباً ، المؤسسة الحديثة للكتاب (لبنان : ٢٠٠٢ م) : ٤١ .
([٢٥]) خالد الازهري ، موصل الطلاب الى قواعد الاعراب ، تحقيق محمد ابراهيم سليم مكتبة الساعي (القاهرة : ٢٠١٢ م) : ٢١.
([٢٦]) عبدالله محمد الجيوسي التعبير القرآني والدلالة النفسية ، ط١ ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية (دمشق : ٢٠٠٦م):٣٧٧ – ٣٧٨ .

([٢٧]) أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم : ٢٣٧ .

المرحلة التي تليها فهي ليست بالقصيرة وإنما كانت مستمرة ملتقية بالمرحلة الموصوفة بعدها . . . أما عن (ثم) ودلالته على الامتداد الزمني (الإحساس بطول الزمن فمأخوذ من كون هذا الحرف يدل على التراخي كما يقول علماء اللغة عنه إلا أن معنى التراخي هذا يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية وأحوال يقتضيها المقام يهمنا من ذلك كله القيمة النفسية لاستعمال هذا الحرف فهي تكمن في كون الحرف قادراً على نقل تلك الأحاسيس والمشاعر النفسية وتصوير أحوال النفس وذلك من خلال تحريك زمن الأحداث وقد أشار إلى هذا المعنى الزمخشري) ومن الأمثلة على ذلك كلامه على (ثم) من قوله تعالى (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون) حين قال : فإن معنى التراخي في قوله (ثم انظر)؟ قلت معناه بعدما بين العجبين يعني أنه بين لهم الآيات بياناً عجيباً وإن إعراضهم أعجب منه) كما تنبه لدور هذا الحرف من هذا الجانب محمود شاكر حيث قال إما (ثم) فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع بلا نظر إلى الزمن المقيدة إذ كما إن (ثم) تستخدم للتعبير عن تراخي الأوقات فهي أيضاً تستخدم للتعبير عن التراخي في الأحوال " [٢٨] ومما يُنبه عليه هناك أصوات كالقلقلة تراها تَكثُر في الأمر وفي الإخبار أي ما يُخبَر عنه أو يقع عليه الفعل وفي فعل الشرط كما العبرة في الإخفاء هو في ما بقي منه من صوت الغنة فلا عبرة بالحرف المغيّب ومناسبته الّا باعتبار نقصان الصوت المذاب وحضور الآخر إذ المعول عليه في التلاوة هو المنطوق فقط كما تبين أشواق محمد إسماعيل النجار ضرورة التنوع الايحائي للصوت الواحد كما في المد فتقول :" وتجدر الاشارة إلى أن المد على الرغم من أنه تغيير ألفوني له دلالات ايحائية متعددة متناسقة مع السياق الذي ورد فيه " [٢٩] فالمدود ذات دلالات صوتية متجاوبة مع سياقها ويتكلم عنها عز الدين علي السيد فيقول : " أما مواقع المدود على أبعاد في الكلام متجاوبة الجرس فإليك منه في الكتاب العزيز على سبيل المثال .... قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرَا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ النساء: ١٣٤ - ١٣٦رتّل هذا المثال الواحد أو أسمع إليه مرتلاً وسجِّل هذه المدات بحسك المتذوق لتعرف ما لها من قيمة إيقاعية مشتهاة للقلب مشتهاة للسمع ثم قس عليها الأعم الأغلب من آيات القرآن ...المد قصير يقدر بحركتي إصبع على التوالي أو طويل يمتد إلى أربع أو ست ليعطي قيمة صوتية أمد (أي أبعد) كالواقع قبل الهمز أو السكون ومزج الكلام بهذه المدود على اختلافها لا يختار اختياراً وإنما يأتي في الأغلب مجانساً للفكرة

([٢٨]) عبدالله محمد الجيوسي التعبير القرآني والدلالة النفسية :٣٥٤ .

([٢٩]) أشواق محمد إسماعيل ، لسانيات النص القرآني بين التنظير والتطبيق : ١٦٦.

والإحساس الممتزج بالفكرة ليعطيها جانباً من التصوير بقوة التداعي " [٣٠] ثم يسترسل موضحاً تراتبية المدود مع الفواصل ليقول : " والمدود في الفواصل وهي نهايات الدفقات الصوتية للجمل عند الوقف نجد لها في القرآن الكريم من الحلاوة والإطراب حظاً يُثير الحكم بأن لها دخلاً بالإعجاز وهي إما مدود مطلقة يوقف عليها بصوتها وإما ملحقة بحرف صائت تسبقه وقد تتكرر في كلمة الفاصلة فيضاعف التكرير قيمتها بما لا يخفى جماله وأسر ايقاعه انظر الى هذه الفواصل المطلقة وقد تكرر في كل الفاظها المد فضلاً عن تجانسها العام في السياق قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ ﴾ الشمس: ١ - ١١ ثم رتِّل سورة (قاف) كلها واقفاً عند كل فاصلة وانظر تجاوب المدود في نفسك وتثبيتها لجملها كأنها أطناب الخيام في منى ما هي إلّا إشارات وراءها أن تعطي سمعك للقاريء أو بصرك للمصحف مرتلاً واعياً لترى تكرار المدود وتدرك ما يصنع " [٣١] فالباحث هنا يتكلم عن تأثير الصوت فيه وما أثاره في مخيلته ثم يذهب ليبين تكرار المدود وما فيها من إثارات للمخاطب فيقول : " كما تعطي أصوات الحروف الصحيحة هذه القيمة السمعية عند التكرار تهب هذه القيمة بشكل أوفر حروف المد الثلاث (الألف – الواو – الياء) عندما تجانسها حركة ما قبلها [٣٢] فتتمحض لانطلاق الصوت مسافة أطول وهي عند التكرار يُلمس لها تطريب تطيب بها النفس ويأنس إليه السمع والوجدان وقد انتبه الى هذه الخصيصة اللغوية المتعلقة بالجرس علماؤنا السابقون فقال السيوطي (كثُر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك كما قال سيبويه إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم يريدون مد الصوت ويتركون ذلك) " [٣٣] فيبدو لنا من خلال التجربة التي مَثلها الباحث في توصيفاته أن التعبير القرآني يتميز بأناقة في الصوت تحمل السامع الى نوع من التخيّل الواعي الذي يُحمّل المشهد القرآني بلاغة من التصوير حية ومتناغمة مع صوته المثير لخلجات النفس فليس الصوت بمعزل عن الأداء اللغوي في هذا الخطاب وهو ما عبر عنه الرافعي بقوله : " وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة وأثرها طبيعي في كل نفس فهي تشبه في القرآن أن تكن صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه " [٣٤] .ويؤكد هذا المعنى صلاح عبد التواب فيقول : " للصورة الأدبية تأثيرها النفسي العميق لدى كل متذوق للفن القولي الرفيع وليس يخفى أن مادة الصوت

([٣٠]) عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير ، ط٢ ، عالم الكتب (بيروت : ١٩٨٦م) : ٦٢-٦٤.

([٣١]) المصدر نفسه : ٦٥ .

([٣٢]) بالحقيقة ما لم توجد حركات مجانسة لهذه الأحرف فلن تعد أحرف مد فهو استعجال في التعبير على ما يبدو ينظر : سعاد عبد الحميد ، تيسير الرحمن في تجويد القرآن ، ط١، دار بن حزم (القاهرة : ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م) : ٩٤ .

([٣٣]) عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير : ٦٠.

([٣٤])مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط ٩ (د.م : ١٩٢٨ م) : ١٥٤ . وللاستزادة عن تجارب الدارسون للصوت القرآني وعلاقته بالمعنى ينظر : عبد القادر البار ، الوظيفة الصوتية والدلالة اللغوية ، مجلة الاثر العدد (٣٠) جوان ٢٠١٨م : ١٦٥-١٦٦ .

هي مظهر الانفعال النفسي وأن هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً او شدة وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ثم هو يجعل الصوت إلى الايجاز والاجتماع أو الاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي او اعجمي " [٣٥] وعمدة تلك الضروب هو التناسب بين الألفاظ والمعاني وهو عماد الأسلوب الأدبي فالمقصود من إختيار الألفاظ وتأليفها التعبير بها عن المعاني حدّ الإيضاح والتأثير [٣٦] والتأثيركما يراه الدارسون خارج المجال القرآني إنما يأتي من ذلك " التوفيق بين المعنى والمبنى إذ لا يصح أن نكتفي بالمعنى دون اللفظ المناسب ولا نهتم باللفظ على حساب المعنى " [٣٧] إذن البلاغة بصورها لا تتجاوز أهمية الأداء الصوتي تأثيراً في السامع والتأثير كما نرى لا يأتي بعفوية التلقي وإن كان الأمر يتميز به القرآن على الصعيد النفسي مما يُسمى بالراحة النفسية لكن المحكي هنا عن المتلقي الذي يُثيره الصوت القرآني فيتكلم عن إحساسه المحاكي لواقع الصورة القرآني من خلال حسه الخيالي بل وادراكه العقلي كما أشار علماء النفس من أن الصوت يعتبر من أهم العوامل التي تجعل للكلام قوة وتأثيراً مما يحمل المستمع على الطاعة [٣٨] ولكن بشرط توافر الذاكرة السمعية – اللفظية بالاضافة الى معرفة الفرد بالمكونات التعبيرية الاستقبالية الخاصة بكل المعاني والتراكيب اللغوية والصوتيات [٣٩] .

.

([٣٥]) صلاح الدين عبد التواب ، الصورة الادبية في القرآن : ٧٤ .

([٣٦]) ينظر : سعيد مراد ، بحوث في الفلسفة والتنوير ، ط١ ، عين للبحوث والدراسات الانسانية والاجتماعية (القاهرة : ١٩٩٥ م) :٥٠.

([٣٧]) المصدر نفسه .

([٣٨]) ينظر : كلير فهيم ، المشاكل النفسية للمراهق ، ط٢ ، دار الثقافة (القاهرة : د . ت) : ١٤٨ .

([٣٩]) ينظر : منير حسن جمال ، اضطراب وظائف المكونات الشعورية للذاكرة العاملة كدالة لقصور الاداء الوظيفي للعمليات اللاشعورية وعلاقتها بمستوى العسر القرائي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية ، المكتبة الالكترونية ، جامعة قناة السويس : ١١ – ١٢ .

المبحث الثاني

الارتباط البلاغي بالخيال وحدود الإبداع التأويلي

المطلب الأول

الخيال دوره وعلاقته بالأوجه البلاغية

إذا كان " الموضوع في شكل صورة هو شيء لا واقعي لا شك أنه حاضر غير إنه لا يمكن الامساك به أو لمسه أو تغيير مكانه أو بالأحرى يمكن ان يتم ذلك ولكن شريطة أن يحصل بكيفية لا واقعية إن المخيلة ليست السلطة التجريبية او مضافة الى الوعي بل إنها الوعي بأكمله حين يتحقق فكل وضعية عينية وواقعية للوعي في العالم تكون مشحونة بالمتخيل حين تتقدم دائماً باعتبارها تجاوزاً للواقع " [٤٠] ذلك أن زوال الحس لا يعني زوال الإحساس كطاقة نفسية فما يغيب مادياً وفي مستوى الحس هو غياب المحسوس وليس على صعيد الذهن [٤١] وبهذا سيكون للتخيّل فائدة كما يبينها ابن سينا في التعايش مع اللفظ القرآني فيقول : " كثرة تصرفات النفس في الخيالات الحسية وفي المثل المعنوية اللتين في المصورة والذاكرة باستخدام القوة الوهمية والمفكرة تكسب النفس استعداداً نحو قبول مجرداتها عن الجوهر المفارق لمناسبة ما بينهما يحقق ذلك مشاهدة الحال وتأملها " [٤٢] وله أهمية في تنوع مستويات الخطاب التي يتجسد من خلال التنوع المثير في الصور المختلفة تقول فاطمة سعيد في ذلك : " إن الناحية الجمالية كانت نصب أعين العلماء الذين نظروا إلى البديع نظرة فنية لما له من قدرة على التأثير وقوة النفاذ إلى الأعماق بما يحدثه من تصور وتخييل ... فالخيال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصياغة وهو موجود بشكل مؤكد في كل عمل فني يحرك العقل ويهز النفس ويثير العواطف فهذا سبب ما نجده من فروق بين شعر وآخر ... الأدوات التصويرية والتعبيرية وليدة الخيال فالخيال هو الابتكار والتجديد والتأثير من هنا رأينا أن أحكام البلاغيين على الشعر غالباً ما يكتفى فيها بالإيجاز دون البسط ولكنه إيجاز يدل دلالة واضحة على أثر هذه القوة كما يدل على قيمتها فإذا أحسوا بأثر هذا الذي يسمى خيالاً ينساب في كل جزئية من جزئيات الصياغة حكموا على هذا القول بأنه متفوق في حسن سبكه ورصفه أو إنه من بديع الشعر وغريبه وإذا لم يحسوا بشيء من ذلك قالوا إنه من غث الكلام وبارده " [٤٣] فإذن التخيّل معرفة تمثل فهماً شخصياً و إذا

([٤٠]) محمد نور الدين افايه ، المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب ، ط١ ، دار المنتخب العرب (بيروت : ١٩٩٣ م) : ١٧ .

([٤١]) ينظر : ابراهيم محمود ، صدع النص وارتحالات المعنى ، ط١ ، مكتبة العباجي (حلب : ٢٠٠٠ م) : ١٦٦ .

([٤٢]) ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات تحقيق سليمان دنيا ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة : د . ت) : ٢ / ٤٠٣ .

([٤٣]) فاطمة سعيد أحمد ، مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة ، جامعة أم القرى (السعودية : ١٩٨٩) : ٤٠٥ـ ٤٠٦ .

كانت المعرفة كما تُعرّف " ادراك جازم مطابق للواقع ناشيء عن دليل " [٤٤] فالخيال الذي يُثيره الصوت القرآني بطرق التعبير المختلفة مرتبطة بذلك الواقع ومعبرة عنه بصنوف من التعبير تلبي حاجتنا إليها كما يؤكده علم النفس ويتكلم حسين علي بهذا الصدد ليقول :" وتبقى مهمة علم النفس هي القيام بتفسير السبب الذي يجعلنا في احتياج للصور والتشبيهات التي بدونها لا نستطيع أن نحقق فهماً تصورياً للمعرفة " [٤٥] وهذه الصور البلاغية لا تحيا إلّا في المخيلة ولا تكون حاضرة بحيوية إلّا من خلال الصوت وايحاءاته [٤٦] وهو ما يؤكده عز الدين السيد بأن " صوت اللفظ ومعناه يكادان يرتبطان برباط وثيق في هذه اللغة " [٤٧] وإن كان الأمر حول اللغة في هذا التوجيه من الممكن الاختلاف فيه فتكاد تطرد المناسبة الصوتية للمعنى في كل القرآن فمثلاً الفاصلة القرآنية سنجد " أن التأثير الموسيقي للفاصلة لا شك في أنه يزيد الأسلوب رونقاً وجمالاً عندما يجيء على نمط خاص في تعبيره وتصويره مما يؤدي إلى هذه اليقظة النفسية والإيحاءات المتعددة من جانب المتذوق لهذا التعبير والتصوير ويكمن ذلك النمط الخاص فيما تحدثه العبارة من جرس في الاسماع لم يلبث ان يتعمق الوجدانات ويمتزج بالمشاعر والأحاسيس فإذا تتابعت الكلمات بحالتها تلك بحسها وجرسها ولين مقطعها وتوالت العبارات بجزالتها وفخامتها وقوة وقعها فلا شك في انها تكون تلك الصورة التي تصحبها موسيقاها فيستجيب العقل والوجدان لداعيها ثم ام تلبث مواقف نفسية متأثرة بها منفعلة لها بين رضا وإعجاب وهدوء واطمئنان إذا كان الايقاع عذبا رخياً متماوجاً وإلّا فالرعب والفزع والاضطراب إذا كان الايقاع صاخباً غليظاً يقذف بالصواعق ويقصف بالرعود " [٤٨] فنجد الضروب البلاغية في القرآن تُعرِض الموضوعات بشيء من الرمزية ليبقى الخيال جزء لا يتجزأ من الرمز لأنه القوة الديناميكية التي تُحرك الإنسان وتصرفات الإنسان وعلاقاته بالأشياء بحيث يُضفي عليها معنىً مستمد من حاجاته الحيوية والروحية التي تمزجها قوى الخيال [٤٩] فلا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك [٥٠] وكل ذلك لا يكون إلّا باستحضار المعنى من خلال التخيّل الداعي له لكن يبقى البشر متفاوتون في تذوق هذا اللون الشبيه باللون البلاغي الإعجازي كما يتكلم السكاكي عن دور البلاغة المؤاخية للصوت القرآني فيقول : " واعلم أن شأن الإعجاز

([٤٤]) طه عبدالله العفيفي ، الصفات الواجبة والمستحيلة والجائزة في حق الله تبارك وتعالى ، ط ١ ، الدار المصرية واللبنانية (القاهرة : ١٩٩٤م): ١٢٠.
([٤٥]) حسين علي حسن ، الاسس الميتافيزيقية للعلم ، دار قباء (القاهرة : ٢٠٠٣م) : ٢٦٦ .
(٤١) ينظر : أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم : ٥٣ .

([٤٧]) عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير : ٦٨ .
([٤٨]) صلاح الدين عبد التواب ، الصورة الادبية في القرآن ، ط١ ، الشركة العالمية المصرية للنشر لونجمان (القاهرة : ١٩٩٥م) (القاهرة : ٢٠٠٣م) : ٧٦ .
([٤٩]) ينظر : لطفي عبد البديع ، ميتافيزيقا اللغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٩٧م) : ٧١
([٥٠]) ينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ،ط ٢ ، الخانجي (القاهرة : ١٩٦٠ م): ١ / ١١٥

عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ولا طريق لتحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلّا التمرن على علمي المعاني والبيان " [٥١]

المطلب الثاني

الوهم الإنساني وحدود الإبداع التأويلي

لاشك أن التخيّل نوع من الإنزياح في استقصاء المعنى فهو نوع من الإبداع في مستويات التأويل [٥٢] بتجاوز الظاهر والمعنى الأولي إلى المعاني الإضافية فليس الخيال طاقة عاجزة عن تحمل مسؤولية الاستنباط أوغير معنية به بل الحقيقة إنه أكبر نشاط حيوي للعقل كما يُعلَم [٥٣] فالتخيّل بحقيقته هو لغة العقل الباطن وهي لغة قوية جداً والتخيّل يعني أن ترى شيئاً بعين العقل [٥٤] إذ " يؤدي الخيال القائم على بعض الأسس العلمية وظيفة المحرك الرئيسي الذي ينسج الحدث ويشكل وقائعه " [٥٥] كذلك التخيّل بدرسنا القرآني استحضاراً للمعنى كدلالة مستقلة عن الشعور الإنساني البعيد هو غير القدرة على مطلق التخيّل من حيث تجاوز مجمل واقعنا والخروج إلى متاهة الخرافة أو النظرية غير المبرهن عليها يقول الميداني مقارباً : " وقدرة التخيّل لدى العقل تستطيع تصور مركبات جديدة غير موجودة في الواقع بهيئتها التركيبية ولكنها موجودة بأجزاءها وهذه القدرة تنتزعها من أماكنها وتؤلف بينها في صورة مبتكرة وقدرة التخيّل مهما كانت واسعة المدى في الإبداع والابتكار فإنها لا تستطيع أن تبتدع جزءاً لم ترد إليها صورته عن طريق الحس الظاهر أو الباطن " [٥٦] فإذن التخيّل مهما بَعُد سيُمثل إمتداداً لجزء

([٥١]) شعبان محمد إسماعيل ، المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الاسلامية ، دار الانصار (مصر : د ، ت) : ٢٨٣ .

([٥٢]) يقول محمد محمد يونس في ذلك : " فالظاهر ان هناك درجات مختلفة من الحرفية في الكلام يكفي لتسويغ الافتراض القائل بأن بعض الكلام يحتاج فهمه الى وقت وجهد اكثر من غيره وهناك معايير اخرى لتحديد أي المعاني المجازية المحتملة اولى من الاخر ... شهرة العلاقة ، قوة العلاقة (بين الحقيقي والمجازي) ، قرب جهة المجاز (أي قربه للمعنى الحقيقي) ، رجحان دلالة المجاز ، شهرة استعمال المجاز "ينظر: محمد محمد يونس علي ، علم التخاطب الاسلامي ، ط ١ ، دار المدار الاسلامي (بيروت : ٢٠٠٦ م) : ١١٢ .

([٥٣]) ينظر : فاطمة سعيد أحمد ، مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة ، جامعة أم القرى (السعودية : ١٩٨٩) : ٩ . (بتصرف)

([٥٤]) ينظر : فيرا بيفر ، الشجاعة الايجابية ، ط١ ، مكتبة جرير (الرياض : ٢٠٠٦ م) : ١٣٦

([٥٥]) أحمد البراء الاميري ، فن التفكير، ط٣ ، العبيكان (الرياض : ٢٠٠٨ م) : ٢١ .

(٤٧) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة ، ط ٤ ، دار القلم (دمشق : ١٩٩٣م): ١٣٠ .

من المحسوس وبالرغم من هذه الحقيقة فهذا المعنى للتخيّل من استجلاب غير الموجود إلا بجزئه المشوه وغير المتوقع لا يُعنى به موضوعنا هنا حول النصّ القرآني بقدر ما يُعنى بإثارة الصور المضمرة في الدلالة القرآنية والمتعلقة بالدور الفاعل للمتخيل المبدع في اقتناص الخيال البعيد من خلال التعبير الدقيق الذي يُمثله القرآن إذ القول بالقيمة التعبيرية للصوت يعني أن الأصوات مدعوة إلى تقديم بعض القيم الدلالية انطلاقاً من خصائصها الذاتية [٥٧] فليست ألفاظ القرآن مجموعة من الحروف تدل على المعنى فحسب بل هي ينبوع يفيض بالصور والأحاسيس والألوان وليست المعاني في القرآن مجردات اعتبارية يدركها العقل وإنما هي صورة حية تمر بخيال القاريء أو السامع ويلمسها أحساسه وتكاد تراها عينه [٥٨] والمشكلة التي لايريد المتبلدون استيعابها أنه إذا ما أُريد تفسير نص قرآني ما فمن الصعب الفصل بين الألفاظ وظلالها التي توحي بها من خلال اجتماعها في سياقها إن تلك الألفاظ التي تبدو دالة على معان مجردة إذا هي اقترنت بالمطالب النفسية نجدها قد تحولت إلى صورة جديدة من خلال التخيّل وعليه فلا بأس لو اطلقنا عليه مجازاً أو استعارة أو كناية فهو يُمثل صوراً نفسية أصيلة وبهذا ندرك دور النفس والذي يتمثل في الربط بين المعاني ومن ثم اختيار المناسب مما تتخيله النفس الانسانية وتتفاعل معه وبهذا نجد أن الألفاظ تزداد قيمة أخرى اكسبتها إياها تلك المجازية وذلك أنها تعبير عن حركة النفس فيكون ذلك بمثابة الانتقال باللفظة من معناها اللغوي المجرد إلى ظلالها النفسية [٥٩] لكن مما ينبغي التنبيه إليه هو أنه " هناك أربعة من الصور تنشأ في نفس السامع أو القاريء بسبب من الألفاظ :

١-صور لفظية ناشئة عن الإدراك الحسي (السمعي او البصري) عند السماع او القراءة هي في الغالب ناشئة عن جرس الكلم وموسيقاه

٢-صور معنوية صريحة وهي الصور الذهنية التي بعثها في النفس معاني الألفاظ والعبارات وهي وسيلة فاعلة للتأثير في الفكر والوجدان

٣-صور معنوية ضمنية مجموعة من الصور الذهنية التي تستنبط استنباطاً

٤-صور لا هي ضمنية ولا هي صريحة وإنما هي معنوية ترابطية تتوارد على الذهن وتسلك سبيلها من منطقة شبه الشعور الى منطقة الشعور تبعا لقانون تداعي المعاني " [٦٠]

لذا ينبغي أن يدرك المعنى بحذر وفقاً لتلك الحيثيات التي تصف طبيعة الادراك الإنساني وينبغي أن تكون احتمالية اللغة والسياق حدوداً مفصلية للإبداع التأويلي الذي يُمثله الخيال

([٥٧]) ينظر : محمد الماكري ، الشكل والخطاب مدخل لتحليل ظاهراتي ط١ المركز الثقافي العربي (بيروت : ١٩٩١م): ١٢٩ - ١٣٠.

([٥٨]) ينظر : محمد سعيد رمضان البوطي ، من روائع القرآن ، مؤسسة الرسالة (بيروت : ١٩٩٩ م) : ١٦٩ .

([٥٩]) ينظر : عبدالله محمد الجيوسي ، التعبير القرآني والدلالة النفسية :٣٨٩.

([٦٠]) المصدر نفسه :٣٧٧ - ٣٧٨. وللمزيد ينظر عبد التواب صلاح الدين الصورة الادبية : ٢٨ - ٢٩ .

الإنساني إذ المخيّلة بلا تلك القيود من الممكن أن تُشوش وتربك جدية الإدراك العلمي فالإدراك ليس عملية بسيطة بل عملية معقدة إذ تَتَدَخل الذاكرة والمخيلة وإدراك العلاقات بين اللغة والسياق في تأويل ما نُدرك [٦١] بل العوامل المحيطة توهم المتأوِّل فمما يُسهم في تأويل المدركات ما يحيط بالشيء المدرك من ملابسات وما يقوم بينه وبين غيره من علاقات ذلك إن نفس الجزء يختلف معناه باختلاف الكل الذي يحتويه فنفس الكلمة يختلف باختلاف الجملة التي تحتويها . . . فالتأويل يتوقف على الموقف الكلي الذي يوجد فيه الشيء لأن الجزء لا يمكن فهمه إلّا في صلته بالكل الذي يضمه ويشتمل عليه [٦٢] فَيُحَذّر المتذوق المتأول بخياله للصور القرآنية من العوامل المؤثرة في الإدراك إذ أن الخيال لا ينتج من عدم وإنما يتأثر بما لدى الفرد من مدركات ومفاهيم سابقة وإن الإدراك الحسي يقوم بدور أساسي في تكوين الافكار والانطباعات والمخزونات الإدراكية التي تخزن داخل الذاكرة .. كما إن هذه المدركات المخزونة بالذاكرة تلعب دوراً اساسياً في تكوين خيال الفرد ولكن الاختلاف بين كل منهما إن الخيال ليس مجرد استدعاء لما سبق من خبرات حسية وادراكية وإنما يتعدى ذلك الى تكوين روابط جديدة بينها وإعادة صياغتها بأسلوب خاص يختلف عن المدركات السابق تخزينها في الذاكرة [٦٣] بمعنى أن يُمثل الطابع الشخصي للإنسان وقدرته التحليلية لذلك يقول ابراهيم شمس الدين : " إن الخيال المبدع ليس ثمرة عوامل وجدانية وقوى ورغبات مكبوتة في العقل الباطن بقدر ما هو تنظيم عقلي يقيمه الذكاء إنه قدرة العبقري على اكتشاف علاقات جديدة أو اختراع علاقات بين عناصر الكون يعجز الإنسان العادي عن اكتشافها " [٦٤] والخيال يختلف عن التصور الذهني فبينما الخيال هو استرجاع للصور والمدركات السابقة في صورة انشاءات جديدة نرى أن التصور الذهني هو إعادة استرجاع هذه الصور والمدركات كما هي دون صياغة ولا خلق ولا إبداع فالتصور في اللغة العربية هو استحضار صورة شيء محسوس في العقل دون التصرف فيه والصورة مستنبطة من الصور اللاتينية Latin Imago وتعني المحاكاة والصور الذهنية ما هي إلّا تسجيل لمشهد أو أي شيء في العقل ويشابه مفهوم التصور الذهني هنا مع مفهوم الصور الارتسامية والتي تظهر عن طريق الذاكرة التصويرية [٦٥] كما يختلف مفهوم الخيال عن التخييل حيث يشير المصطلح الثاني إلى نشاط غير متحكم فيه ولا يمكن توجيهه بواسطة الفرد الذي ينغمس فيه كبديل للواقع وغالباً ما يرتبط بأحلام اليقظة فهذا التخيّل له صفات لا شعورية بينما الخيال المقصود له سمات شعورية كما نجد هناك من يفرق بين مصطلح الخيال والتخيّل وهناك من يستعملهما على نفس الدلالة [٦٦] فمما يخص موضوع درسنا هو " التخيّل الإبداعي أو الانشائي : ويتمثل في قدرة التفكير على إعادة التركيب بطريقة مبتكرة لما يتم استعادته من صور ذهنية أو معان أو خبرات أو أحداث سابقة وتعد القدرة على

---

(٦١) ينظر : أحمد عزت راجح ، اصول علم النفس ، المكتب المصري الحديث : ١٩٧.
(٦٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٩٧.
(٦٣) ينظر : هناء محمد عوض ، الخيال في الرسوم وعلاقته بالابداع لدى الجنسين من سن ٦ الى ١٦ سنة : ١٠٤ – ١٠٥ .
(٦٤) ابراهيم شمس الدين ، مرجع الطلاب في الانشاء الفلسفي ، دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠١٤ م) : ٢٠٥.
(٦٥) ينظر : هناء محمد عوض ، الخيال في الرسوم وعلاقته بالابداع لدى الجنسين من سن ٦ الى ١٦ سنة ، جامعة عين شمس (مصر : ٢٠٠١ م) : ١٧ .
(٦٦) المصدر نفسه .

التخيّل الابداعي الذي يؤلف ويفرق بين صور وخبرات سابقة هي اللبنة الأساسية التي يخلق منها الإبداع في مجالات الفنون والآداب والعلوم " [٦٧] فهو التصور المبني على أسس علمية من دلائل اللغة والحس معاً وهو غير التخيّل الوهمي الذي يتبع الأهواء والميول [٦٨]

([٦٧]) عبدالحليم محمود وآخرون ، علم النفس العام ، ط٣ ، مكتبة غريب (القاهرة : ١٩٩٠م): ٣٩٦.
([٦٨]) المصدر نفسه : ٣٩٦.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية :

١- الدراسة بينت دور النص الشفاهي للقرآن في استكناه الدلالة الذاتية والثانوية دون النص القرآني المكتوب لما للصوت من إيحاء واثارة للتخيل لا تكون في الحرف المكتوب بينما تتضح في الملفوظ منه .

٢- كما بينت الدراسة من خلال القراءات التي قدمها علم النفس لمستويات التخيّل والتي تذهب الى الوهم او التأثر بالتجربة الشخصية أهمية الموضوعية في استجلاء الدلالة القرآنية فيكاد إطلاع الباحث عليها والمساهم في الدرس الصوتي ضرورة من ضروريات التفسير الصوتي للقرآن .

٣- وجدت الدراسة أن التخيّل يُعنى بدلالات تَبعُد عن الوهم الى مفهوم الإدراك الواعي الذي يقوم على الخيال المؤسس على العقل ودلالات اللغة والواقع والممثل للفهم في هذا السياق .

٤- ترى الدراسة أن اللغة العربية لها خصوصية البيان كما وصفها القرآن وبما امتازت به من تنوع ايقاعي يتناسب مع الكثير من مفرداتها وقد بلغت ذروة التجانس في الاستعمال القرآني .

٥- توصلت الدراسة إلى تعاضد ثنائية الصورة الرمزية بما تمثله من البلاغة القرآنية مع الصوت القرآني الحامل لها من أجل ايصال الصورة بأبلغ تعبير من خلال الإيحاء الحي الذي يُمثله الصوت والإيحاء الذي يثيره الرمز اللغوي والبلاغي بما فيه من دلالات وصور جاء بها القرآن .

٦- للدراسة ملحظ حول التخيّل المبني على الحس والتجربة الانسانية المشتركة والآخر المبني على الجنوح النفسي المبالغ فيه تمثيلاً لخصوصية التجربة الفردية .

٧- التخيّل في هذه الدراسة يُعنى بالطابع البلاغي القرآني من تنوع في الأداء الصوتي والإيحاء وصولاً إلى خلق صور تُحفِّز الذاكرة لخيال خصب مستوعب للحقيقة المتضمنة فيه بكل ما تعنيه فنرى أنه يجتمع في الخطاب القرآني الإيجاز في اللفظ والسعة في

التصور من خلال الايحاءات التي يطلقها الصوت وتكتنفها القوة التعبيرية للخطاب القرآني .

٨- الإيحاء لغة اللغة كما تجده الدراسة هنا إذ يُمثل ظلالاً للمعنى الغائب بما يُسمى بالمعنى الثانوي أو الإضافي في الدرس البلاغية فهي متلازمات الدلالة والمعنى الكلي في حاضنة الصوت القرآني .

المصادر والمراجع

- ابراهيم شمس الدين ، مرجع الطلاب في الانشاء الفلسفي ، دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠١٤ م) .
- ابراهيم محمود ، صدع النص وارتحالات المعنى ، ط١ ، مكتبة العباجي (حلب : ٢٠٠٠ م) .
- ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات تحقيق سليمان دنيا ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة : د . ت) .
- أبي هلال العسكري ، الفروق اللغوية للعسكري ، حققه محمد ابراهيم سليم ،دار العلم والثقافة (القاهرة : د . ت).
- أحمد البراء الاميري ، فن التفكير، ط٣ ، العبيكان (الرياض : ٢٠٠٨ م) .
- أحمد عزت راجح ، اصول علم النفس ، ط ١١ ، المكتب المصري الحديث (الاسكندرية : ١٩٩٩ م).
- أحمد مختار عمر ، اخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ، ط٢ ، عالم الكتب (د .م : ١٩٩٣م) .
- أسامة عبد العزيز ، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم ، ط١ ، عالم الكتب الحديث (الاردن : ٢٠١٣م) .
- أشواق محمد إسماعيل لسانيات النص القرآني بين التنظير والتطبيق ط١ عالم الكتب الحديث (اربد : ٢٠١٣م) .
- أمين محمود ، القعساء تحطم الخريطة الذهنية نقلاً عن الشبكة العنكبوتية .
- الجاحظ ، البيان والتبيين ،ط ٢ ، الخانجي بالقاهرة والمشي (بغداد ، ١٩٦٠ م) .
- جنان محمد مهدي ، الإيقاع الصوتي الايحائي في سياق النص القرآني ، مجلة كلية التربية للبنات – جامعة بغداد - المجلد (٢١) العدد الرابع لسنة ٢٠١٠ .
- حسين علي حسن ، الاسس الميتافيزيقية للعلم ، دار قباء (القاهرة : ٢٠٠٣م) .

- خالد الأزهري ، موصل الطلاب الى قواعد الاعراب ، تحقيق محمد ابراهيم سليم مكتبة الساعي (القاهرة : ٢٠١٢ م) .
- رشيد عبد الرحمن العبيدي ، معجم الصوتيات ، ط١ ، مركز البحوث والدراسات الاسلامية (بغداد : ٢٠٠٧م) .
- ساجدة عبد الكريم ، اثر الصوت في توجيه الدلالة –دراسة اسلوبية صوتية – مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية ، المجلد (١٧) العدد (٣) ٢٠١٠ م .
- سعاد عبد الحميد ، تيسير الرحمن في تجويد القرآن ، ط١، دار بن حزم (القاهرة : ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م) .
- سعيد مراد ، بحوث في الفلسفة والتنوير ، ط١ ، عين للبحوث والدراسات الانسانية والاجتماعية (القاهرة : ١٩٩٥ م) .
- شعبان محمد إسماعيل ، المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الاسلامية ، دار الانصار (مصر : د ، ت) .
- صلاح الدين عبد التواب ، الصورة الادبية في القرآن ، ط١ ، الشركة العالمية المصرية للنشر لونجمان (القاهرة : ١٩٩٥م) (القاهرة : ٢٠٠٣م) .
- طه صالح امين ، التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء ، ط١ ، دار المعرفة (بيروت : ٢٠٠٧ م) .
- طه عبدالله العفيفي ، الصفات الواجبة والمستحيلة والجائزة في حق الله تبارك وتعالى ، ط ١ ، الدار المصرية واللبنانية (القاهرة : ١٩٩٤م) .
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة ، ط ٤ ، دار القلم (دمشق : ١٩٩٣م) .
- عبد العظيم ابراهيم دراسات جديدة في اعجاز القرآن ، ط ١ ، مكتبة وهبة (القاهرة : ١٩٩٦م) .
- عبد القادر البار ، الوظيفة الصوتية والدلالة اللغوية ، مجلة الاثر العدد (٣٠) جوان ٢٠١٨م .
- عبدالحليم محمود واخرون ، علم النفس العام ، ط٣ ، مكتبة غريب (القاهرة : ١٩٩٠م): ٣٩٦.

- عبدالله محمد الجيوسي التعبير القرآني والدلالة النفسية ، ط١ ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية (دمشق : ٢٠٠٦م) .
- عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير ، ط٢ ، عالم الكتب (بيروت : ١٩٨٦م) .
- فاطمة سعيد أحمد ، مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة ، جامعة أم القرى (السعودية : ١٩٨٩) .
- فيرا بيفر ، الشجاعة الايجابية ، ط١ ، مكتبة جرير (الرياض : ٢٠٠٦ م) .
- كلير فهيم ، المشاكل النفسية للمراهق ، ط٢ ، دار الثقافة (القاهرة : د . ت) .
- لطفي عبد البديع ، ميتافيزيقا اللغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٩٧م) .
- محمد أحمد قاسم ، القواعد الجامعة صرفاً ونحواً واسالیباً ، المؤسسة الحديثة للكتاب (لبنان : ٢٠٠٢ م) .
- محمد الماكري ، الشكل والخطاب مدخل لتحليل ظاهراتي ط١ المركز الثقافي العربي (بيروت : ١٩٩١م) .
- محمد حسين الرنتاوي ، ذوق الحلاوة ببيان علاقة المعنى بإعجاز التلاوة ، بيت الافكار الدولية (الرياض : د . ت) .
- محمد سعيد رمضان البوطي ، من روائع القرآن ، مؤسسة الرسالة (بيروت : ١٩٩٩ م) .
- محمد عبد المطلب ، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، ط١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر (القاهرة : ١٩٩٥ م) .
- محمد محمد يونس علي ، علم التخاطب الإسلامي ، ط ١ ، دار المدار الاسلامي (بيروت : ٢٠٠٦ م) : ١١٢ .
- محمد نور الدين أفايه ، المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب ، ط١ ، دار المنتخب العرب (بيروت : ١٩٩٣ م) .
- مصطفى الصاوي الجويني ، البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف (الاسكندرية : ١٩٨٥م) .

- مصطفى الصاوي الجويني ، البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ، (الاسكندرية : ١٩٧٥م) .
- مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط ٩ (د .م : ١٩٢٨ م) .
- منير حسن جمال ، اضطراب وظائف المكونات الشعورية للذاكرة العاملة كدالة لقصور الاداء الوظيفي للعمليات اللاشعورية وعلاقتها بمستوى العسر القرائي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية ، المكتبة الالكترونية ، جامعة قناة السويس .
- مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق ، دار الرائد العربي (بيروت : ١٩٨٦م) .
- مهدي عناد قبها ، التحليل الصوتي ، دار أسامة ، ط١ (عمان ٢٠١٣م) .
- هناء محمد عوض ، الخيال في الرسوم وعلاقته بالإبداع لدى الجنسين من سن ٦ الى ١٦ سنة ، جامعة عين شمس (مصر : ٢٠٠١ م) .